آلتون كوپرى

في التاريخ

Altun Kcupru dans l'histoire.

آلتون كوبرى ويجوز كتابتها بصورة «التون كبرى» قصبة في لواء كركوك واقعة بين جسرين قائمين على فرعي الزاب الصغير الذي يقال له ايضا الزاب الاصغر وبتعبير آخر الزاب الاسفل . ويقال للفرع الاعلى آلتون صو (١) وتعريبه الحرفي «الماء الذهب» ومعناه «نهر الذهب» . ومعنى التون كوبري جسر الذهب ولا بد ان القائل آلتون كوبرى اراد ان يقول آلتون صو كوبريسى اي جسر نهر الذهب فاستطال الجملة فاختصرها . وقد ذهبت الى القول بهذا الاختصار معلمة الاسلام وكذلك حضرة الاب صاحب هذه المجلة (٥ [١٩٢٧ ــ ٢٨] : ٣٦٢) ورجحت معلمة الاسلام قولها على قول من ينسب الاسم الى وفرة الدخل الذي يوخذ عن العبور . وبعض العراقيين منا يعرب آلتون كوبرى مع اختصاره فيقول « القنطرة » كما قال الاب في كلامه الذي اشرت اليه اما الحكومة فتكتبها في ما تصدره من الرسميات بصورة التون كوبري .

ويروي بعض الناس عن سبب تسمية آلتون كوبرى ان السلطان مراد الرابع حينما جاء بغداد في سنة ١٠٤٨ هـ (١٦٣٨ م) امر بتشييد جسر هنالك فابان من امر بذلك حاجته الى مال كثير فتقدم اليه بالشروع وان تبلغ النفقات ثقل الجسر ذهباً ولا يمكننا ان نقبل هذا السبب للتسمية ــ على فرض صحة الامر بالبناء وتداول الكلام عن النفقات ــ لوجود نهر هناك اسمه التون صو قبل مجيء السلطان مراد الى بغداد فضلا عن ان اسم آلتون كوبرى كان معروفاً قبل زمن السلطان المار الذكر بنحو ثلاثة قرون على اقل تقدير . وقد سمع ايضاً حضرة

١) عن عدة مؤلفات حديثة العهد بالعربية في جغرافية العراق وعن هذه المجلة ومعلمة الاسلام. وقد بحث عن التون كوبري الاستاذ الكبير الدكتور هرتسفلد في كتابه في جزء سنجار في ص ٣٢٢ لكننا لم نستفد من مقاله شيئاً لجهلنا الالمانية والظاهر انه لم يبحث فيه عنها في عصورها الاخيرة .

كلاب صاحب المجلة ان باني القنطرتين اللتين في آلتون كوبرى هو السلطان كما ان سالنامة الموصل لسنة ١٣٢٥ هـ (١٩٠٧ م) (ص ٢١٥) كانت قد قالت ما تعريبه : « ان هذا الجسر العظيم اسس في مصر مراد خان الرابع ولا يزال حافظاً صلابته ومتانته » اه . اما التاريخ فانه يخطىء صاحب السالنامة اذ انه يبين لنا ان الجسر كان قد خرب وانه جدد بعد الالف والمائة من الهجرة كما سيجيء فلم يكن الجسر القائم في زمن وضع السالنامة ذلك الجسر الذي ينسب بناؤه الى السلطان مراد ان صحيحاً وان غلطاً .

وها هنا اروي لك ما وجدته عن قديم اسم التون كوبرى مقتبساً الكلام من بضعة مصنفات فيها العربي والتركي والفارسي والبرتغالي مبتدئاً بما هو اقرب عهداً فصاعداً :

ذكر آلتون كوبرى كتاب « فذلكة كاتب جلبي » (بالتركية) (٢ : ٦٦) المتوفى في سنة ١٠٦٧ هـ (١٦٥٦ م) في حوادث سنة ١٠٣٤ هـ (١٦٢٤ م) وذلك في قوله الذي اعربه كما يلي : « كان بكلربكي قرمان وهو جركس حسن باشا قد شتى في جهات الجزيرة وحسن كيف (حصن كيفا) فشاع تجمع الاعداء في التون كوبرى وكركوك فسار اليهم ... » اه .

وذكره كتاب « شرفنامه » بالفارسية (٢ : ٤٤٠) ومؤلفه شرف خان وقد اتمه في سنة ١٠٠٥ هـ (١٥٩٦ م) .

وكذلك ذكره بصورة Altûn Copri مستره افونسو البرتغالي (١) في رحلته (ص ٢٢٠) وقد ابتدأ بها في سنة ١٥٦٥ م (٩٧٣ هـ) .

وجاء بذكره ايضاً رستم باشا في تاريخه المترجم الى الالمانية (٢) (ص٨٦) وكانت وفاة الباشا المؤرخ في سنة ٩٦٨ هـ (١٥٦٠ م) .

ومن الذين ذكروا آلتون كوبرى قديماً — حتى قبل مجيء السلطان سليمان الى بغداد في سنة ٩٤١ هـ (١٥٣٤ م) — عبدالله بن فتح الله البغدادي الملقب بالغياث في كتابه المسمى التاريخ الغياثي اذ قال : « ثم اسبان ترك امير محمد بن

١) Mestre Afonso وتجد رحلته في مجلد فيه رحلتان اسمه Itenerarios da India a Portugal per terra ... Coimbra 1923.

2) Die Osmanische Chronik des Rustem Pascha.-Leipzig 1923.

شيء الله بجصان ورحل الى كركوك ودقوق فاخذها واخذ آلتون كوبرى » وقال: « فلما سمع الوند بموت اسبان وانهم سلطنوا بولاد وليس لهم فيه ارادة ... توجه الى كركوك — وكانت اولكته — وتوجه منها الى اربل والتون كوبرى والموصل فاخذها : » وكذلك قال : « وكان كور خليل ومقصود بيك ابن حسن بيك بالموصل فتوجهوا الى كركوك ودقوق والتون كوبرى » اه وكان المؤلف عائشاً في اواخر القرن التاسع للهجرة على ما كان بينه حضرة الاب صاحب المجلة فيها وبينته فيها انا ايضاً في مقالة العمارة والكوت .

واقدم عهداً من كل ذلك ما جاء في كتاب « ظفرنامه » بالفارسية لشرف الدين علي اليزدي الذي كان من رجال النصف الاول من القرن التاسع للهجرة وقد انجز كتابه في سنة ٨٢٨ هـ (١٤٢٤ م) على ما في قاموس الاعلام . فانه قال ما معناه : « فتوجه العلم الذي شعاره النصر بضمان الله وحفظه وتأييده الى بغداد بطريق آلتون كوبرى » اه .

والظاهر ان الجسر لم يكن صالحاً للعبور عليه في سنة ١٠٣٨هـ (٢٩-١٦٢٨م) فقد جاء في كلشن خلفا ما ملخصه (ص ٧٥ من المطبوع) ان خسرو باشا هيأ في الموصل ظروفاً لعبور التون صو فعبره وخيم العسكر المنصور في شهرزور . فيجوز ان الباشا اراد العبرة في موضع غير موضع الجسر فاحتاج الى ظروف (للاكلاك) واذا فرضنا ان عبرته كانت في موضع الجسر فيمكن ان يقال ان السلطان مراد حينما جاء الى بغداد — وذلك بعد عبرة الباشا ببضع سنوات — راى الجسر منهدماً فامر ببنائه .

فهمنا سماع الاب ان قنطرتي « التون كوبرى » من ابنية السلطان مراد وكذلك قالت سالنامة الموصل وقد روت كلامها بصيغة لا تبقي مجالا للشك في ان الجسر من ابنية السلطان المار الذكر كأن ذلك حقيقة تاريخية راهنة مع ان كلشن خلفاء ايضاً (ص ١٢٩ من المطبوع) يخبرنا في حوادث سنة ١١٢٩هـ (١٧١٦م) اي بعد مجيء السلطان مراد الى بغداد بنحو ثمانين سنة بما تعريبه ملخصاً :

« فصل : ومما وفق له الوزير المشار اليه (حسن باشا والي بغداد) من عمل الخيرات الكثيرة انه عرض على الدولة ان الجسر القائم على النهر المعروف

المشهور بـ « التون صو » الواقع بين الموصل وكركوك قد خرب فتعسر المرور والعبور هناك وطلب من الدولة تجديده فقبل السلطان بذلك وامر بان ينفق عليه من مال الدولة فشرع الوزير بتجديده فكان الجسر يسعيه محكماً طولا وعرضاً ومتيناً في عمارته وعين عليه اميراً فاضحى مأوى لجميع الرعايا ومأمناً لابناء السبيل مع سهولة المرور » اه . وهذا الكلام لا يبقي ريباً في ان الباشا جدده تجديداً واو كان فعله فيه ترميماً لما احتاج الى مراجعة الاستانة لصرف نفقات لابد انها كانت طائلة . فكلام السالنامه ليس بصحيح يخطئه هذا المؤرخ المعاصر .

وجاء مثل ذلك التعبير واستعمال الالفاظ نفسها في حديقة الوزراء للشيخ عبدالرحمن السويدي وفي مختصرها لسليمان الدخيل فانه قال : « فصل : ولم يزل الوزير (حسن باشا) له توفيق لعمل الخيرات والمبرات وبناء المساجد والرباطات فقد عمر قنطرة الطون صويى بعد خرابها . وهذا الماء جار بحدة بين الموصل وكركوك . وجعل فيها بعد عمارتها مأوى لابناء السبيل وعين من الرعية الجمع الكثير لما يقوم ببعض حاجات العابرين هناك » اه ولا بد ان الشيخ السويدي نقل عن كاشف خلفا اذ ان البناء كان في سنة ١١٢٩ هـ على ما رأينا ولم يكن عمر الشيخ السويدي اذ ذاك إلّا بضع سنوات فان ولادته كانت في سنة ١١٣٤ هـ (١٧٢١ م) على ما في هذه المجلة (٢ [١٢-١٩١٣] : ٢٧٨) وغيرها .

ويدعي ايفس (١) في رحلته (ص ٣١٥) — وقد مر بالتون كوبرى في حزيران سنة ١٧٥٨ م (١١٧٢ هـ) — انه روي له ان الجسر من ابنية النصارى القدماء الذين كانت المدينة تعود اليهم ومع اني لا اعتقد صحة ما رواه فاني ارجح ان الجسر من الابنية المتقدمة على زمن السلطان مراد اذ لو كان له اساس نسب الى غيره في زمن ايفس ولم يكن ثمة قد مر إلّا نيف وقرن واحد على زمن السلطان فلم يكن قد نسي بانيه ويجوز انه للسلطان مراد وإنما يذكر التاريخ بناءه اياه . ولا اقول في عجالتي هذه اني استقصيت البحث اذ لا بد للمنقب ان يجد غير ما اوردته .

يعقوب نعوم سركيس

1) A Voy. from England to India ... also, a Journey from Persia to England ... by Edward Ives. London, 1779.